اجتهادات
حين يفقدُ الإحسانُ فضائله

تبرعات الأثرياء المُعلنة على الملأ, وإعلانات المؤسسات الخيرية الكبيرة, وجهان للعملة نفسها. يجمعُهما اتجارُ بالإحسان والعطاء والخير. أثرياءُ كبارُ يستفيدون من تبرعاتهم كلُ بطريقته، وإن تجمعُهم الاستفادة من إعفاءاتٍ ومحفزاتٍ ضريبية توفَّرها قوانين الدول التى تُشجِّعُ التبرع بوصفه وسيلةً لتوزيع الثروة. ومؤسساتُ خيريةُ كبرى فى العالم تجمع أموالاً طائلة عبر استدرار العطف على الفقراء والمرضى، ولا تُحاسبُ جديًا على مصروفاتها فى البلدان التى يستشرى فيها الفساد.

فى كل عامٍ يبادرُ عددُ من كبار الأثرياء فى العالم إلى إعلان تخصيص مقادير من ثرواتهم لأعمال الخير. كان وارن بافت، وبيل جيتس، وجيف بيزوس، وماكنزى سكوت، وجوتام أدانى، أبرز المتبرعين فى العام الماضى، إذ تبرع كلُ منهم بأكثر من مليار دولار. كثيرُ غيرهم تبرعوا بمبالغ أقل. ولكن كرمهم المُعلن على أوسع نطاق ليس مجانيًا. يحصلون فى مقابله على الكثير. وفضلاً عن مزايا ضريبية كبيرة، يظهرون فى صورة فاعلى الخير المعنيين بالناس وآلامهم، والمؤدين مسئولياتهم الاجتماعية. ولهذا تكون

تبرعاتُهم معلنةً رغم أن قيمة الإحسان فى الكتمان. فالعطاء يفقدُ فضائله حين تُنشر أخباره فى الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعى، وربما يصبحُ شكلاً مختلفًا من أشكال «البيزنس».

ولهذا الإحسان الفاقد فضائله تاريخ طويلُ حذرت الأديان منه. فى الحديث النبوى الشريف إشادةُ بمن تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، فصار بين من يُظلُهم الله يوم لا ظل إلا ظله. ونجد المعنى نفسه فى الإنجيل. وقد سُميت الصدقةُ بهذا الاسم لأنها تدلُ على صدق إيمان المُتصدَّق. والإيمانُ الحق ينهى عن التفاخر والتباهى والاستكبار.

وفى تاريخ الأدب والفن أعمالُ رائعة فى هذا المجال. تحضرُنى منها مسرحيةُ الكاتب الفرنسى الثورى الرائع أوكتاف ميربو (المأوى) التى عُرضت للمرة الأولى عام 1908، وعبرت عن مرارته من سلوك كبار الأثرياء الذين يتخذون من الإحسان ستارًا لنشاطٍ مالى وممارساتٍ غير أخلاقية. وكانت الجمعيةُ التى أسَّسها البارون كورتان لإيواء أطفال يُعثرُ عليهم فى الشوارع هى ذلك الستار الذى نجدُ مثله، ومثل ذلك البارون، فى كل مكانٍ وزمان.